الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق

عرض الدكتور / عز الدين إسماعيل أحمد

شد انتباهى ذلك المرجع الهام الذى حمل إلينا روح الإسلام الطيبة فى الشرق ومدى ما بلغته الدول الإسلامية والإسلام فى هذه البلاد من شأن وعزة أمام جحافل الشرك والمشركين ، والانتصارات العديدة التى حققها المجاهدين المسلمين فى سبيل نشر الإسلام .

والكتاب الذى بين أيدينا فى حوالى ٥٠٣ هـ صفحة من القطع الكبير وهو للأستاذ الدكتور عصام عبد الرؤوف الفقى أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب جامعة القاهرة ، ويقع الكتاب فى ثلاثة أبواب ، يضم كل باب منها عدة موضوعات رئيسية تتناول تاريخ الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق ، كما أن الكتاب مزود بالعديد من الخرائط ، التى توضح سير الحملات الحربية الإسلامية ، والوقائع العسكرية التى انتصرت فيها الجيوش الإسلامية ، وحققت انتصارات باهرة على جحافل الشرك ، ومن العلامات المميزة لهذا الكتاب أنه مزود بجميع المصادر والمراجع العربية والأجنبية التى اعتمد عليها المؤلف ، ويتميز أسلوب الكتابة بالبساطة والبعد عن التعقيد ، كما عالج المؤلف موضوعاته بمنهجية تاريخية محايدة ، استند فيها إلى الوثائق والمراجع وآراء الكتاب والمعاصرين وشهود العيان فى تلك الوقائع التى حدثت ، كما خرج من كل ذلك بدروس مستفادة والكتاب هام وضرورى لكل المشتغلين بالتاريخ الإسلامى فى الشرق ، وكذلك الباحثين والمهتمين . وسوف نعرض الأفكار الرئيسية لهذا الكتاب .

تناول الباب الأول ظهور الإسلام فى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم حيث قال « بدأ الفتح الإسلامى لطبرستان وجرجان فى عهد عثمان بن عفان ، وكان أول من غزاهم من العرب سعيد بن العاص والى الكوفة فى عهد عثمان بن عفان أن شن على هذه البلاد حملة اشترك فيها بعض الصحابة الأجلاء ومنهم الحسن والحسين ونجح سعيد فى فتح بعض بلدان طبرستان واستولى على سهلها والرومان والدنبلوينز . ثم سار إلى جرجان فى مائة ألف من أهل الشام والعراق وطبرستان على رأس جيش الموالى والمتطوعة ، وابتداء بداغستان فحاصرها ، وكان أهلها من الترك وشدد عليهم الحصار ، حتى طلبوا الأمان فعقد معهم صلحا ، وغنم المسلمون مغانم كثيرة ، ثم خرج منها إلى جرجان واستقبله أهلها

بالصلح فصالح ملك الجرجان على مائتى ألف درهم ، على أن الفتح الإسلامى لطبرستان وجرجان فى عهد الراشدين لم يكن مستقراً ، فكانت تؤدى كل الإتاوة » .

وفى الباب الثانى وتحت عنوان الدولة الغزنوية يقول المؤلف : وقد حرص السلاطين الغزنويين على إظهار مدى ما حققوه من نجاح وتوفيق ضد أعداء الإسلام ، فكان محمود الغزنوى يرسل عقب كل غزوة يغزوها فى بلاد الهند خطابا إلى الخليفة العباسى يتحدث فيه عما أحرزه من نصر للإسلام ، وكان الخليفة بدوره يرسل إليه التشجيع والتعضيد ، ففى سنة ٤٠٤ هـ - ١٠١٣ م فتح محمود بن سبكتكين ناردين ، فأرسل إليه الخليفة العباسى القادر بالله يجدد له العهد ولقبة بنظام الدين . وفى سنة ٤١٠ هـ ١٠١٩م لقب محمود بأبى الخليفة القادر بكتاب يذكر فيه ما افتتحه من بلاد الهند جاء فيه » انتخب العبد ثلاثين ألف فارس وعشرة آلاف رجل ، وانضم جماهير من المتطوعين ، وخرج العبد من بلدته فى العام التاسع ٤٠٩ هـ بقلب فانشرح لطلب الشهادة ، ففتح قلاعاً وحصوناً ، وأسلم زهاء عشرين ألفاً من عباد الأوثان وسلموا قدر ألف ألف درهم ، ووافى العبد مدينة لهم عاين فيها زهاء ألف قصر مشيد ، وألف بيت من الأصنام العظيمة زيادة على ألف صنم ، ولهم صنم معظم يؤرخون به لعظم جهالتهم بثلاثمائة عام .

كما حرص الخلفاء العباسيون بدورهم على اعتراف الغزنويين لهم بالسيادة على بلادهم ، فلما توفى الخليفة القادر بالله أرسلت الخلافة رسولا إلى السلطان مسعود تخبره بوفاة الخليفة وتوليه ولى عهده القائم ، فجلس السلطان مسعود للعزاء ثلاثة أيام وأمر بإقامة الخطبة للخليفة الجديد القائم بأمر الله فجلس السلطان ومعه رسول الخليفة بعد الصلاة فجاء بخزينة السلطان ووضعت تحت المنبر وبها عشرة آلاف دينار من السلطان للخليفة ، ثم أخذت الأموال تتوالى بعد ذلك من الأمراء وأنجال السلطان والوزير وكبير الحجاج وغيرهم ، وكان الموكلون يجمعون تلك الأموال ويحملونها إلى رسول الخليفة وهذا دليل على حرص السلاطين الغزنويين على صلات المجاملة بينهم وبين الخليفة العباسى . ومما يجدر ذكره أن السلطان مسعود كان يطلب من الخليفة تفويضاً بحكم طبرستان وخوارزم وغيرهما ، كما طلب من الخليفة قطع صلته بأعدائه وخانات تركستان لذلك سخا فى هديته.

ومما لا شك فيه أن الرغبة فى الجهاد ورفع راية الإسلام فى غير بلاد الإسلام من أقوى الأسباب التى دفعت القزنويين إلى القيام بفتوحاتهم فمن الثابت أن محمود الغزنوى كان مسلماً قوى العقيدة ، تواقا إلى نشر الإسلام .

وتحت عنوان الدولة الخوارزمية يتناول المؤلف تاريخ هذه الدولة فيقول .. أسس الدولة الخوارزمية توشتكن أحد الأتراك فى بلاط ملكا شاه . وكان يشغل وظيفة الساقى ، ومازال يترقى فى سلك الوظائف ، وكان حسب الطريقة كامل الأوصاف ، وقد أدب أبنه محمد وأحسن تأديبه ، لذلك وقع اختيار أصدقاؤه بركياروق عليه ليكون حاكما على إقليم خوارزم ولقبه بخوارزم شاه سنة ٤٩٠ هـ وكان حاكماً عادلاً ، وقرب أهل العلم والدين إليه ، فازداد ذكره حسنا ومحله علوا ، ولما ملك السلطان سنجر السلجوقى خراسان أمر محمد خوارزمشاه على إقليم خوارزم وأعمالها فظهرت شجاعته وكفائته وعظم سنجر محله وقدره على أن الدولة السلجوقية بدأت تضعف بعد وفاة سنجر بينما أخذت الدولة الخوارزمية تزداد قوة واستطاع السلطان تكش أن يهزم ويقتل آخر السلاطين السلاجقة ، واستولى على ملكهم فى العراق والسرى وأصفهان . ولما توفى تكش خلفه ابنه علاء الدين محمد خوارزمشاه فسار على سياسة أبيه الرامية إلى توسيع حدود دولته .

وفى موضوع آخر يقول المؤلف عن المغول :

« وهكذا لم يتمكن الأتابكة فى الموصل والجزيرة من الحد من الخطر المغولى الذى تعرضت له بلادهم بل خشوا بأسهم ، واضطروا إلى الدخول فى طاعتهم ، غير أن هذه السياسة التى اتبعها هؤلاء الأتابكة لم تجد نفعاً فتعرضت بلادهم لغارات المغول التى اقترنت بالتخريب والتدمير .

وتطلع المغول إلى الزحف على مصر ليتموا بذلك السيطرة على بلاد الشرق الإسلامى وليقضوا على آخر قوة إسلامية فى استطاعتها التصدى لهم .

وأرسل هولاكو إلى سلطان المماليك فى مصر الملك قطز خطاباً يهدده فيه ، ويتوعده إن امتنع عن التسليم والإذعان له ، ويذكره بأن المغول فتحوا كافة البلاد ، ولم تستطيع أى قوة الوقوف فى وجههم ومما جاء فى خطابه : لكم فى جميع البلاد مصر ، فاتعظوا بغيركم

وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ، فنحن لا نرحم من بدى ، ولا نرق لمن شكا وأى أرض تأويكم ، وأى طريق تنجيكم ؟ فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالطيال ، وعدونا كالرمال .. وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد ، فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص .

لكن السلطان قطز لم يأبه بتهديد المغول ، بل عقد العزم على ضرورة مقاومتهم مهما كانت التضحيات ، فأمر بقتل رسل سلطان المغول وعلقت رؤوسهم على باب زويلة ، وخرج السلطان قطز إلى بلاد الشام للقاء المغول الذين اجتازوا الشام ودخلوا فلسطين ، واقتربوا من حدود مصر ، واحتلوا غزة واشتبك المسلمون من مصر والشام وبلاد الجزيرة فى رمضان ١٢٦٠م مع المغول فى عين جالوت بالقرب من نابلس فى معركة حامية الوطيس انتصر فيها المسلمون على أعدائهم بعد أن اشتدت هجمات المغول حتى أن كتب قائد المغول تحول أثناء المعركة إلى قطعة من اللهب بسبب الغيرة والغضب ، وقد أظهر المسلمون شجاعة منقطعة النظير أثناء المعركة ، ولما رأى السلطان قطز قوة بأس المغول القى بخوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته ، وإسلاماه ، عندئذ ثارت حماسة ضده وحمى وطيس المعركة ، وانتصر المسلمون انتصارا رائعاً ومزقوا شمل المغول كل ممزق فى المعركة ، ولم ينجح من المغول إلا من لاذ بالفرار ، وفروا لا يلوون على دار ولا يركنون إلى قرار .

ومما لاشك فيه أن هذا المرجع يمثل أحد المراجع الأساسية التى كتبها المؤرخون عن تاريخ الإسلام والدول الإسلامية فى الشرق ، وقد كتبه مؤلفه بأسلوب رفيع سلس بعيد عن التعقيد ، وقد تميز بنوع من الشمولية وهو إضافة لا بأس بها للمكتبة العربية والمكتبة الإسلامية .